



58

العقل العربي

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

الفصل الخامس عشر

رسالة الركود العربي

1. رسالة التاريخ

لم يكن معظم العرب يعرفون غير القليل عن تاريخهم حتى جاءت الحرب العالمية الأولى. وذلك دون ذكر بعض التقاليد الشعبية المبهمة التي شكلت جزءاً من الفولكلور العربي وربما كانت لها علاقة ما بحقائق تاريخية ثابتة. وكان إهمال عنصر الزمن صفة مميزة في هذه التقاليد مما جعل الناس الذين لهم اطلاع جيد على البطولات الأسطورية لهارون الرشيد وصلاح الدين لا يعلمون متى عاشت هاتين الشخصيتين. أو كم توالى من أجيال منذ ذلك الحين.

وطالما كانت من الميزات التقليدية لنفسية العربي أن ينفس غضبه بمن يحمل له الأخبار السيئة؛ وهنالك العديد من الوقائع التاريخية التي نجد فيها الخليفة أو الوزير يأمر بقطع رأس رسول بريء لا لذنوب اقترفه غير نقله لنبا الهزيمة في إحدى المعارك أو أي حدث مؤلم آخر. أما هؤلاء الذين تحملوا عبء نقل المعلومات المكروهة عن الركود العربي منذ نهاية العصور الوسطى فكانوا مؤرخين غربيين تخصصوا في القرن الثامن عشر بالدراسات العربية والشرق أوسطية؛ وكان من حسن حظهم أنهم لم يتواجدوا شخصياً عندما وصلت أنباؤهم المؤلمة عن الركود والتخلف الحضاري إلى مسامع المثقفين العرب؛ حيث كانت الاستجابة تتطابق تماماً مع ما قد يتوقعه المرء: اتهام هؤلاء المؤرخين الذين نذروا أنفسهم لدراسة التاريخ العربي بأنهم معادون للعروبة. وكان أي تحليل ناقد لتاريخ العرب يفهم على أنه محاولة لتدمير الأمة العربية. وكان ينبغي أن تمر عدة عقود قبل أن تفعل الرسالة فعلها بغض النظر عن إطلاقها والضربة التي وجهتها إلى كبرياء العرب.

الفصل الخامس عشر: مسألة الركود العربي

فتقبل عدد أكبر من المثقفين العرب الحقيقة التاريخية للأمد الطويل الذي قضاه العرب في ركودهم، ومن بعدها فهموا العبرة التاريخية من وراء ذلك.

إن قراءة سريعة للتاريخ العربي الرسمي ترسم مشهدا يبين أبعاد مشكلة الركود العربي. فنجد أن فيليب حتي، هذا المؤرخ العربي الماهر الذي لا يجارى في مضمار اختصاصه الذي أنفق فيه سنين حياته، لا يخصص إلا أقل من (7%) من كتابه الضخم (تاريخ العرب من العصور القديمة حتى الحاضر) لمناقشة أحداث ما بعد عام 1517. إن هذه المعالجة المختصرة لفترة طويلة معاصرة كهذه لا يمكن أن نجد لها غير سبب واحد: وهو أن الفترة الممتدة ما بين عام 1517 وبين حصول معظم الدول العربية على استقلالها بنهاية الحرب العالمية الثانية، لم يشهد العالم العربي خلالها أحداثا تاريخية ذات أهمية تؤهلها لتكون موضوعا للمناقشة بتفصيل أكبر.

ويصل المرء إلى الاستنتاج نفسه بدراسة الملحق الخاص لعدد أكتوبر 1956 من مجلة (اتلانتيك مونثلي Atlantic Monthly) والذي حمل عنوان (نظرة إلى العالم العربي)، واحتوى مجموعة ممتازة من الدراسة بأقلام عدد من أمهر المختصين بالشؤون العربية (من بينهم البرت حوراني، هاميلتون غيب، طه حسين، جمال محمد أحمد، إسحاق حسين)، وكان الملحق من إعداد ويليام بولك (William Polk) الذي يعد من أبرز هؤلاء المختصين. وحمل الملحق خاتمة ترسم خطأ زنيا للعالم العربي مقسما إلى 54 مادة: 27 منها للفترة (500-1258)، 26 للفترة (1789-1956)، ومادة واحدة تحمل عنوان (القرن السادس عشر- 1918: العرب يشكلون جزءا من الامبراطورية التركية المتأسسة في القرن الرابع عشر) وذلك لجسر فجوة 540 عاما (الفترة 1258-1789)؛ وهذا الحال يذكرنا بمقولة الفيلسوف الألماني شبنينغلر (Oswald Spengler) حول انعدام الأهمية التاريخية «للفلاحين بتفاصيل حياتهم البهيمية» التي لا تحفل بأي حدث جدير بالملاحظة والتدوين في الخط الزمني. حتى أن حتي نفسه يصرح بأنه حتى استيلاء نابليون على مصر (1798-1801):

الفصل الخامس عشر: مسألة الركود العربي

كان سكان العالم العربي في الأعم يعيشون حياة انطوائية تقليدية متعارفا عليها. ولم يكونوا ينجزون أي تقدم. كما كانوا بعيدين عن العلم بالتقدم الذي يحصل في الخارج. ولم يكن لديهم اهتمام بالتغيير. ولكن هذا الاتصال المفاجئ بالغرب كان بمثابة أول تنبيه ساعد على إيقاظهم من سباتهم الذي امتد من العصور الوسطى. كما قدح الشرارة الفكرية التي ألهمت ركنا من أركان العالم الإسلامي.¹